MENA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا

التصنيف العقائدي لسكان أوروبا وأثره في اندماج المهاجرين المسلمين فيها

"ألمانيا أنموذجاً"

محمد نفيسة

حقوق النشر والطبع ورقياً والكترونياً محفوظة لصالح مركز أبحاث ودراسات مينا

يعد التصنيف العقائدي أهم ركائز تعريف الذات الفردية والجماعية، ويتجلى هذا التصنيف لدى الأفراد عند تعريف الـ (أنا) والـ (هو)، ويبرز بشكل أوضح في الحديث عن محددات الهوية الجماعية لذلك التعريف، وتعمل الجماعات الدينية عموماً، على وضع قاموسها التصنيفي الخاص بها، لتحديد الموقف من الإثنيات المحيطة بها، ويترتب على هذه التصنيفات نتائج كثيرة، منها اعتراف ببعضها وإنكار لبعضها الآخر، وصوغ القيمة الاعتبارية لكل منها، وتأطير العلاقات، وتنظيم العيش المشترك، والاختلاط، وتبادل الأطعمة والأشربة، والتزاوج.. وغيرها.

يعتمد التصنيف الإسلامي العقائدي للجماعات والأديان والمذاهب والأفراد على النص القرآني، كما يعتمد وإن على نحو أقل، على الحديث النبوي، وعلى التصنيفات المعتمدة في الكتب والمراجع التراثية المختلفة. وتندرج تحت عنوان التصنيف الإسلامي العقائدي مفردات كثيرة، فالناس ينقسمون إلى مسلمين، ومؤمنين، وكافرين، ومنافقين ومشركين، وأهل كتاب، وصابئة، ومجوس.. الخ.

المفردات التصنيفية العقائدية الشائعة لدى المسلمين في ألمانيا:

التقسيمات والتصنيفات العقائدية كما هي في الواقع لدى المهاجرين المسلمين في أوروبا عامة، وفي ألمانيا خاصة، هي:

المسلمون والمؤمنون:

الإسلام بالتعريف: هو التصديق بالدين الذي بُعث به محمد، وبمبادئه، ورسالته، ونبيه. ومن الناحية الرسمية يقال عن شخص إنه مسلم في ألمانيا، إذا عرَّف نفسه بوضوح بأنه مسلم، بغض النظر عن أصله العرقي، ودون النظر إلى اعتبارات المذاهب والفرق الإسلامية المتعددة، فيجمع هذا الوصف المسلمين بجميع مذاهبهم وفرقهم وطوائفهم..

أما الإيمان فأشهر معانيه التصديق، ومحله القلب. ويكون الإنسان مؤمناً إذا تطابق باطنه وظاهره، دون تلاعب أو تورية أو نفاق. هذا ما لم يكن المرء مكرهاً، فالإكراه لا يثبت الإيمان ولا ينفيه. جاء في لسان العرب: "الإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق، ضدّه التكذيب، يقال: آمن به قوم وكذّب به قوم"(١).

---

١. ابن منظور، لسان العرب، مجلد ١، ص ١٤٠.

والشائع في الثقافة الغربية عموماً أن يأتي وصف الإيمان مقابل وصف الإلحاد، وللفرد البالغ الحرية التامة في تصنيف نفسه، وليس غيره، إيماناً وإلحاداً، وله حق التصريح بانتمائه الديني أو إخفائه (٢). أما الأطفال فإنهم يتبعون دين آبائهم حتى سن الرابعة عشرة، بعدها يبدؤون بالاستقلال عن خيارات الوالدين، واتخاذ الاتجاه الديني الذي يريدونه.

ويتداخل لدى المسلمين وصفا الإسلام والإيمان، فيشيرون بهما إلى الفئة المخصوصة التي تتبع الإسلام وتؤمن بنبيه وكتابه، وتتبع تعاليمه. وهذا الاستخدام شائع أيضاً في كتب التراث الإسلامي، ولا نجد تفريقاً بينهما إلا إذا وردا في معرض الحديث عن أركان كل منهما. كما يطلق أحياناً على جميع أتباع الديانات الإبراهيمية، اليهودية والمسيحية والإسلامية.

وحتى وإن كان التزام المسلم بالأحكام والشرائع والعبادات والشعائر الإسلامية ناقصاً، فإنه يبقى في نظر المسلمين مسلماً مؤمناً، ما لم يعلن صراحة أنه تخلى عن الإسلام واتبع منهجاً آخر. فالمسلم مؤمن، والمؤمن مسلم كذلك، والصفتان لا تفترقان عادة، وإن اعترت الإنسان نزعات الهوى وعوارض الشك، وحالات التقصير.

الكُفَّار وغير المسلمين:

الكُفَّارُ جمع كَافِر، وردت في القرآن الكريم مرات عديدة، كما وردت في كتب الحديث وسائر كتب التراث الإسلامي. وتقابلها كلمة Infidelفي اللغتين الإنكليزية والفرنسية، وكلمة Ungläubigerفي اللغة الألمانية، ومعناها الحرفي "غير المؤمن" (٣). وإذا تمّ استخدام المسلمين هذه الكلمة فإنها تشير إلى أولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام ديناً، ولا يعترفون بمحمد نبياً، ولا يقرون بما يتفرع عن ذلك من اتباع للشريعة والعبادة والعقيدة الإسلامية. ويشيع لدى مسلمي ألمانيا مصطلح "غير المسلمين"، فيحل محل مصطلح (الكافرين) في الحوارات والنقاشات التي تجمع فئات من خلفيات دينية متعددة. لأنهم يشعرون أن وصف (كافر) فيه تعدٍ لحدود اللياقة المطلوبة في التعامل مع المجتمع المحيط، وتجنباً لما قد يثيره من جدل وشعور بالإساءة من قبل الطرف الموصوف به. فكلمة كافر تختزن في الفضاء الثقافي

---

٢. الدستور الألماني، مادة ٢، فقرة ١، ومادة ٤ فقرة ١.

٣. قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية، صادر عن جامعة أوكسفورد ٢٠٢٠، نسخة مؤرشفة. Oxford Dictionary of English, Oxford University Press ٢٠٢٠.

الأوروبي معاني سلبية مسيئة، واستخدامها يستحضر الماضي المرير في الصراع مع الكنيسة، ويذكّر بالمآسي التي حلت بالمفكرين والفلاسفة التنويريين. ويحظر الدستور، والقوانين النافذة في ألمانيا مختلف أنواع الإساءة إلى الإنسان (٤)، بما في ذلك إطلاق الأوصاف والأسماء والألقاب التي تحمل معاني سلبية أو غير مرغوبة.

أهل الكتاب أو المسيحيون واليهود:

اختلف الفقهاء في المقصود بأهل الكتاب، فمنهم من رآها تشمل جميع المؤمنين بكتابٍ سماوي، فيدخل فيها اليهود والنصارى، والمؤمنون بزبور داود وصحف إبراهيم. وذهب آخرون إلى أنّها تقتصر على اليهود والنصارى دون غيرهم (٥). ويتداخل أحياناً مصطلحا أهل الكتاب وأهل الذمة، وهم الذين أبرم معهم عقد الذمة من أهل الكتاب ومن يلحق بهم، وبمقتضاه يحصلون على حق البقاء داخل الدولة الإسلامية مقابل خضوعهم لسلطتها، ودفع مقدار محدد من المال يسمى (الجزية). لكن لا محل لمصطلح (أهل الذمة) في حياة المسلمين في ألمانيا، فهو مصطلح فقهي يقصد به المسيحيون واليهود الذين كانوا يعيشون تحت الحكم الإسلامي، وهذا يختلف عن الواقع في معظم بلدان أوروبا ومنها ألمانيا، حيث المسلمون أقلية، وغير المسلمين هم الأكثرية.

وحتى مصطلح نصارى القرآني، فإنه قليلاً ما يستخدمه المسلمون في ألمانيا، ويستعاض عنه بمصطلح (مسيحيين)، لأن المسيحيين لا يسمون أنفسهم نصارى، والترجمة الحرفية لكلمات: the Christianفي الإنكليزية و der Christفي الألمانية، و le Christالفرنسية هي المسيحي.

لا يرد مصطلح أهل الكتاب كثيراً على ألسنة المهاجرين المسلمين في ألمانيا، إذ يستعيضون عنه بمصطلحي: "المسيحيون واليهود"، ويقصدون به المسيحيين واليهود بمختلف طوائفهم ومذاهبهم. على أنهم يتداولون هذا الوصف لدى الحديث عن جواز أكل طعام أهل الكتاب أو الزواج بنسائهم، إضافة إلى الحديث عن حرمة زواج المسلمة بالكتابي.

---

٤. الدستور الألماني، مادة ١ فقرة او ٢، ومادة٣ فقرة٣.

٥. الموسوعة الفقهية الكويتية، الجزء ٧، ص ١٢١ و١٤٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة ٣، الكويت، ١٩٨٣. ووهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ٧١٦، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨. والموسوعة العربية، مادة: أهل الكتاب: http://arab-ency.com.sy/detail/2830/

الملحدون واللادينيون واللاأدريون:

الإلحاد في الفرنسية Athéismeوفي الإنكليزية Atheismوفي الألمانية Atheismus، ومعنى الإلحاد في اللغة العربية الميل عن القصد، والعدول عن الشيء، يقال ألحد في الدين ولحد، أي حاد عنه وطعن فيه، وألحد في الحرم أي استحل حرمته وانتهكها، والإلحاد يعني أيضاً الكفر باللّه والشك فيه، أو بمعنى أوسع مَيْل عن الدِّين وطعن فيه، مع إنكار وجود إله (٦).

والإلحاد تاريخياً أنواع، فهناك إلحاد بمعنى إنكار وجود الخالق أصلاً (٧)، وهناك إلحاد أطلق على من نفى علم اللّه أو عنايته أو قدرته أو إرادته، رغم إيمانه بوجوده، وقد نُعت بهذا الإلحاد مؤمنون كثيرون، منهم أفلاطون وأرسطو وابن رشد وابن سينا والرازي وديكارت واسبينوزا وكانط وغيرهم (٨). والإلحاد في الأدبيات الحديثة مصطلح عام يصف تياراً فكرياً فلسفياً يتمركز حول فكرة إنكار وجود خالق لا يمكن إدراكه بالحواس البشرية وفق المفهوم السائد في الأديان المنتشرة في العالم (٩).

وهناك التباس بين مصطلح الإلحاد ومصطلحات أخرى مثل اللادين واللاأدرية، ويرجع هذا إلى تداخل هذه التيارات، وانعدام الحدود الواضحة التي تميز بعضها عن بعض. فمصطلح اللاأدري هو ترجمة لكلمة إنكليزية مشتقة من كلمة Agnosisاللاتينية وتعني عدم المعرفة. فاللاأدرية أو الأغنوستية Agnosticism فلسفة يؤمن أتباعها باستحالة التعرف على وجود اللّه أو أي من الغيبيات خارج نطاق العلم التجريبي، واستحالة إثبات عدم وجود اللّه كذلك، ويرون عدم إمكان التوصل إلى الإيمان ضمن شروط الحياة الإنسانية (١٠).

أما اللادين فمعناه بالإنكليزية Irreligionومعناه انعدام الإيمان بالأديان إما بشكل عفوي بسبب الجهل بها، أو بشكل متعمد مع توفر المعلومات عنها. واللادينيون يرفضون فكرة جعل الدين محوراً لتنظيم

---

٦. ابن منظور، لسان العرب، المجلد ٥، ص ٤٠٠٥ و٤٠٠٦.

٧. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، ص ٨٤.

٨. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء ١، ص ١١٩ و١٢٠. وأندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء ١، ص ١٠٧.

٩. تعريف الإلحاد في قاموس أكسفورد http://www.oxforddictionaries.com/definition/english/atheism

١٠. موسوعة الدين والعلم، مادة اللاأدرية. (بالإنجليزية). Interdiscipliary Encyclopedia of Religion and Science: Agnosticism.

حياة الإنسان، ويختارون لأنفسهم أسلوب حياة لا يتماشى مع الدين، وليس من الضروري أن يكون اللاديني منكراً لوجود الإله أو الخالق، فهناك لادينيون يقرون بوجوده، ومنهم من يرى الخوض في هذه المسألة مضيعة للوقت والجهد فيما لا يمكن إثباته أو نفيه أو التحقق منه. وعليه فكل ملحد لاديني، وليس كل لاديني ملحداً (١١).

ويواجه المسلمون المهاجرون مشكلة في التعامل مع ظاهرة الإلحاد بمختلف أشكالها، فجميع الملحدين يعدون كفاراً، ويصنفون في فئة الأشد كفراً، ولا يمكن لمسلم تأويل حالهم أو مقالهم بما يخفف من حدة الاختلاف معهم.. ولا يمكن اعتبار الملحد منتمياً إلى دين قد فارقه بإرادته، فإن كان قبل إلحاده مسلماً، فهو في عداد المرتدين، وإن كان قبل إلحاده كتابياً، فهو كافر يسري عليه ما يسري على المشركين، ولا يوجد من العلماء أو الفقهاء من اعتبره كالصابئة المذكورين في القرآن، ولا كالمجوس الذين قال فيهم النبي صلى اللّه عليه وسلم: "سنّوا فيهم سنة أهل الكتاب"(١٢).

ودخول الإنسان في جملة الملحدين يجعله أمام وضعية مختلفة تماماً فيما لو كان ممن يعيش في دولة إسلامية، من حيث الزواج والإرث والنسب والحقوق الاعتبارية للمواطن، وصلاحيته لتولي الوظائف والمناصب، وبقاء عقد الذمة الخاص به من عدمه في حال كان في الأصل كتابياً أو مجوسياً، إلى غير ذلك من الأحكام.

أما المهاجر المسلم في ألمانيا، فإنه بداية يواجه صعوبة في معرفة التوجه الديني والفكري للآخرين، فلا الأسماء ولا الألوان ولا الأشكال توحي بشيء من ذلك، وليس لك، أو لنقل: إنه من غير اللائق بك، أن تبادر لسؤال الآخر – الذي لا تربطك به معرفة وطيدة – عن دينه واتجاهه الفكري، ما لم يقم هو بالتصريح طواعية بذلك.

والدستور والقانون في ألمانيا يكفلان للفرد حرية المعتقد مطلقاً، ويكفلان له أيضاً حق إخفاء دينه، وتوجهه الفكري أياً كان، ويمنع التمييز على أساس الدين منعاً تاماً، في التعليم والعمل والحياة الاجتماعية والمرافق الأخرى كافة (١٣).

---

١١. حسناء الرشيد، اللادينية: أسباب – تاريخ، موقع الحوار المتمدن، ٣٠/ ٠٤/ ٢٠١٧.

١٢. مالك بن أنس، الموطأ، مؤسسة الرسالة، بيروت:١٩٩٨، حديث رقم ٧٤٢، ج١، ص ٢٨٩.

١٣. الدستور الألماني، المادة ٣، فقرة ٣، والمادة ٤، فقرة ١ و ٢.

إن معرفة دين الآخر ضرورية بالنسبة للمهاجر المسلم، ويترتب على ذلك الكثير من الأمور، خاصة ما يتعلق بالموقف من أكل طعامه، وإمكانية الارتباط بعلاقة زوجية معه، وكذلك الموقف المتعلق بالإرث في حال وجود قرابة معه (١٤)، وغير ذلك من الأحكام.

الخريطة الدينية في أوروبا:

تتبنى الدول الأوروبية عامة النظام العلماني، لكن تنص دساتير العديد منها على اعتبار المسيحية أو أحد مذاهبها ديناً للدولة، وهذه الدول هي: أرمينيا واليونان وأيسلندا والنرويج وسويسرا وليختنشتاين وموناكو والفاتيكان واسكتلندا. وثمة دول أوروبية أخرى، علمانية، لا تملك كنيسة رسمية، لكنها تمنح اعترافاً رسمياً لمذاهب مسيحية دون غيرها، مثل فنلندا وجورجيا وقبرص وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا وبولندا. وهناك دول تعتمد العلمانية البحتة دستورياً مثل فرنسا وإيرلندا ورومانيا وروسيا (١٥).

حقائق وأرقام حول الانتماء الديني في أوروبا:

حسب قاعدة البيانات الوصفية السويسرية للانتماء الديني في أوروبا (SMRE)، فإن نسبة المسيحيين في البلدان الأوروبية الخمسين المدروسة 60,1%، ويتوزعون على النحو التالي: (28,3% كاثوليك، و22,1% أرثوذوكس، و8,2% بروتستانت، و1,5% مسيحيون آخرون). وما يقرب من ربع السكان، أي 23,9%، ليس لديهم انتماء ديني رسمي. يليهم المسلمون بنسبة 13,5%. أما اليهود فبلغوا 0,2%. وهناك أيضاً 1,8% ينتمون إلى أديان أخرى (١٦).

أما في دول الاتحاد الأوروبي الـ ٢٨، فإن نسبة المسيحيين أعلى نسبياً، فقد بلغت 66,1% بعد أن كانت 60,1%. وكذلك نسبة (اللادينيين)، التي بلغت 28,9%، بعد أن كانت في الدول الـ ٥٠ حوالي

---

١٤. مسعود صبري، فقه الإلحاد، موقع إسلام أون لاين، ٢٤/ ١/ ٢٠١٦.

١٥. مجموعة باحثين، ملف خاص: العلاقة بين الدين والدولة، موقع DWالعربي، ٢٥. ٠٤. ٢٠٠٦. https://p.dw.com/p/8JEM

١٦. أنطونيوس ليدهاجنر وأناستاس أوديمات: الانتماء الديني في أوروبا، قاعدة البيانات الوصفية السويسرية للانتماء الديني في أوروبا (SMRE)، الانتماء الديني في الفترة ٢٠٠٦–٢٠١٩/١/١٤،٢٠١٥. Antonius Liedhegener & Anastas Odermatt: Religious Affiliation in Europe. The "Swiss Metadatabase of Religious Affiliation in Europe (SMRE)", SMRE-generated Data Retrieval for: Religious Affiliation in Period 2006-2015. 14.01.2019. https://www.smre-data.ch/

23,9%. **وفي المقابل انخفضت نسبة المسلمين في الاتحاد الأوروبي كثيراً، إذ بلغت ٣%، بينما كانت في الـ ٥٠ دولة 13,5%، وهذا يعود إلى أن الدول الأوروبية الخمس ذات الغالبية المسلمة: تركيا، والبوسنة والهرسك، وألبانيا، وكوسوفو، وأذربيجان، ليست أعضاء في الاتحاد الأوروبي.**

في ١١ من الدول الـ ٥٠ كانت نسبة المسيحيين أكثر من 90%، وفي مقدمتها الفاتيكان ومالطا ورومانيا وبولندا، بنسب تتراوح بين 98,6 و96,7%. في ١٢ دولة أخرى تراوحت نسبة المسيحيين بين ٨٠ و90%. وفي ٤٠ من أصل الدول الـ ٥٠ ينتمي أكثر من نصف السكان إلى إحدى الطوائف المسيحية.

أكثر من نصف السكان في ٤ من الدول الـ ٥٠ لا ينتمون إلى أي دين، وهذه الدول هي: جمهورية التشيك ٧١%، وإستونيا 68,8%، والمملكة المتحدة 50,6%، وفرنسا 50,5%. وتليها هولندا 46% ثم المجر 45,3%، وبلجيكا 41,8%، ولاتفيا 39,%، والسويد 33,6%، وألمانيا 33,1%. واستناداً إلى بيانات عدد السكان لعام ٢٠١٧، ووفقاً لبيانات SMRE، فإن هناك نحو ٢٠٠ مليون شخص بدون انتماء ديني رسمي يعيشون في ٥٠ دولة أوروبية، وهذا يشمل ٣٨ مليوناً في روسيا، و١٤٨ مليوناً في دول الاتحاد الأوروبي الـ ٢٨، حيث يوجد منهم ٣٤ مليوناً في فرنسا، و٣٣ مليوناً في المملكة المتحدة، و٢٧ مليوناً في ألمانيا (١٧).

الخريطة الدينية في ألمانيا:

ينص الدستور الألماني على أنه "ليس للدولة مذهب كنسي رسمي"(١٨)، وعليه فإن ألمانيا تتبنى مبدأ فصل الدين عن الدولة، وقد شهدت ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر بداية محاولات التحرر من سلطة الكنيسة، لكن أنصار الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية تحركوا بقوة آنذاك ضد فصل الدين عن الدولة، ووقفوا ضد منع تدريس الديانة المسيحية في المدارس. وما زالت التربية الدينية حتى اليوم تدرس كمادة اختيارية في المدارس الألمانية، وتخضع مباشرة لمرجعية الكنيسة من حيث الموضوعات والمناهج الدراسية(١٩).

---

١٧. موقع المركز الاتحادي للتربية السياسية الألماني، الانتماء الديني: الانتماء الديني الرسمي، النسبة المئوية للسكان، بيانات الفترة من ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٥، ٢٢/٠٢/٢٠١٩. Bundeszentrale für politische Bildung, Religionszugehörigkeit: Formale Religionszugehörigkeit, Anteile an der Bevölkerung in Prozent, Daten zum Zeitraum 2006 bis 2015, 22.02.2019.

١٨. نص الدستور الألماني الصادر عام ١٩٤٩ في المادة ١٤٠ منه، على اعتبار مواد من الدستور الألماني الصادر عام ١٩١٩ (دستور فايمار) جزءاً منه، ومنها هذه الفقرة، وهي الفقرة ١ من المادة ١٣٧ من دستور ١٩١٩.

وتعتبر ألمانيا مثالاً للوسطية فيما يتعلق بالعلاقة المثيرة للجدل بين الدين والدولة، فالدستور الألماني قائم على ضمان الحرية والديمقراطية، ويتعاطى بإيجابية مع دور المسيحية كمرجعية قيمية وأخلاقية، لكنه في الوقت نفسه يرفض التدخل المباشر للمؤسسات الدينية في العملية السياسية. أما التأثير غير المباشر فهو متاح، وذلك من خلال الدور الذي يلعبه ممثلو الكنائس من داخل المنظومة الحزبية، إذ يحاولون إقناع الأحزاب القريبة منهم فكرياً وسياسياً بتبني تصوراتهم، لأن الدستور الألماني يعتبر الأحزاب السياسية المرجعية العليا ذات الأحقية في صياغة إرادة الشعب والتعبير عنها.

وتقوم القوى الدينية كذلك، باعتبارها جزءاً من قوى المجتمع المدني، بالتأثير في الرأي العام وحشد التأييد لموقف معين، وهذا ما يحقق لها تأثيراً فاعلاً في العملية السياسية الديمقراطية، بشكل يتماشى مع الدستور ومبدأ فصل الدين عن الدولة. وإن للكنيسة في ألمانيا من السلطات الرمزية والمادية ما يجعلها تتدخل في أمور حساسة تهم الرأي العام، مثل قضية الإجهاض، وإشكالية التعامل مع المثليين. وعلاوة على ذلك لا زالت الكنائس تشرف مباشرة على عدد من القطاعات الحيوية كالمستشفيات ودور رعاية المسنين ورياض الأطفال.

وثمة تجلٍ آخر لتشابك علاقة الدولة بالكنيسة، فالدولة الألمانية تقوم من خلال وزارة المالية باقتطاع ضريبة مباشرة من الدخل المالي لأتباع المذهبين الكاثوليكي والبروتسانتي لصالح الكنيسة. وتعد الكنيسة كذلك أحد أهم أرباب العمل في ألمانيا، من خلال استثماراتها وإشرافها على قطاع واسع من الخدمات الاجتماعية (٢٠).

التوزع الديني في ألمانيا حقائق وأرقام

تقدر نسبة المسيحيين إضافة إلى اللادينيين بنحو 94,5% من سكان ألمانيا، وإذا أخذنا كل مذهب من المذاهب المسيحية على حدة؛ فإننا سنجد أن اللادينيين ونسبتهم 33,1% يشكلون، باتجاهاتهم العديدة، المجموعة الأكبر في عموم ألمانياً.

---

١٩. موقع القناة الألمانية DW، بحث بعنوان: الدين والدولة في ألمانيا: فصل نسبي وتأثير غير مباشر للكنيسة، ٢٠٠٦/٠٤/٠٦. https://p.dw.com/p/8BOI

٢٠. –المرجع السابق نفسه.

وإذا أردنا وضع تسلسل كمي للأديان أو الاتجاهات العقائدية في ألمانيا فإنه سيكون كالتالي: اللادين يأتي أولاً، تليه المسيحية الكاثوليكية، فالمسيحية البروتستانتية، ثم يأتي الإسلام، بعده تأتي المسيحية الأرثوذكسية، ثم تأتي اليهودية. ويمكن أيضاً اعتبار المسيحيين، بمذاهبهم المختلفة، الغالبية من سكان ألمانيا، إذ تبلغ نسبة الكاثوليك 30,2%، ونسبة البروتستانت 29,2%، بينما تصل نسبة المسيحيين الأرثوذوكس إلى 1,6%، إضافة إلى نسبة تقدر 0,4% من المسيحيين الآخرين.

وبالإجمال فإن ما نسبته 61,4% من السكان تدين بالمسيحية، وتنتمي إلى الطوائف المسيحية المختلفة، ولكن ثمة ملاحظة ذات دلالة في الإحصائيات الخاصة بالتوزع الديني داخل ألمانيا، فهناك اختلاف كبير بين الولايات التي كانت تشكل ألمانيا الشرقية وتلك التي كانت تشكل ألمانيا الغربية، فقد كانت نسبة المسيحيين في ألمانيا الغربية 81,0%، بينما بلغت 30,2% فقط في ألمانيا الشرقية.

ويختلف كذلك التوزع الطائفي للمسيحيين بين الألمانيتين، ففي ألمانيا الشرقية يهيمن البروتستانت على الحضور المسيحي بنسبة 21,9%، مقابل نسبة 5,4% من الكاثوليك، في حين أن الوجود المسيحي في ألمانيا الغربية يتوازعه كلا المذهبين الكاثوليك بنسبة ٤٣%، والبروتستانت بنسبة ٣٤%.

وبلغت نسبة المسجلين رسمياً في فئة غير المنتمين إلى أي دين ١٤% في غرب ألمانيا، في حين وصلت نسبتهم إلى 68,1% في شرق ألمانيا. ويأتي الإسلام في المرتبة الثالثة بعد كل من المسيحية واللادين، ويشكل المسلمون في ألمانيا وفق قاعدة البيانات الوصفية السويسرية للانتماء الديني في أوروبا (SMRE)ما نسبته 4,9% من السكان. وتختلف نسبتهم كثيراً في شرق ألمانيا عن غربها.

جدول بالتوزع الديني الرسمي في ألمانيا في الفترة من ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٥ (٢١):

	المسيحيون	اليهود	المسلمون	الأديان الأخرى	لا انتماء ديني
	النسبة المئوية للسكان				
ألمانيا	61.4	0.2	4.9	0.4	33.1
شرق ألمانيا	30.2	0.0	1.0	0.7	68.1
ألمانيا الغربية	81.0	0.0	3.0	2.0	14.0

جدول بالتوزع الطائفي للمسيحيين في ألمانيا في الفترة بين ٢٠٠٦ و٢٠١٥ (٢٢):

	المسيحيون	مسيحيون كاثوليك	مسيحيون بروتستانت	مسيحيون أرثوذكس	مسيحيون آخرون
	النسبة المئوية للسكان				
ألمانيا	61.4	3.2	29.2	1.6	0.4
شرق ألمانيا	30.2	5.4	21.9	0.3	2.6
ألمانيا الغربية	81.0	43.0	34.0	1.0	3.0

الموقف الفقهي الإسلامي من غير المسلمين:

يقسم الفقهاء غير المسلمين إلى قسمين:

القسم الأول: أهل الكتاب، وقد ذكرنا في تعريفهم أنهم اليهود والنصارى (المسيحيون)، يضاف إليهم الفقهاء المجوس في قضية قبول الجزية منهم فقط دون غيرها.

القسم الثاني: غير المسلمين من المجموعات والأفراد، الذين لا يدينون باليهودية والنصرانية. ويدخل ضمن هؤلاء المشركون العرب وغير العرب، (ما معنى المشركون العرب) والبوذيون والهندوس، والملحدون واللادينيون واللاأدريون، والوجوديون والشيوعيون، وأتباع الملل والعقائد الأخرى كافة.

يشترك القسمان في بعض الأحكام ويختلفان في أخرى، فأما الأحكام المشتركة فهي على النحو التالي:

---

21. – موقع المركز الاتحادي للتربية السياسية الألماني، الانتماء الديني: الانتماء الديني الرسمي، النسبة المئوية للسكان، بيانات الفترة من ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٥، ٢٢/٠٢/٢٠١٩. Bundeszentrale für politische Bildung, Religionszugehörigkeit: Formale Religionszugehörigkeit, Anteile an der Bevölkerung in Prozent, Daten zum Zeitraum 2006 bis 2015, 22.02.2019. https://www.bpb.de/nachschlagen/zahlen-und-fakten/europa/70539/themengrafik-religionszugehoerigkeit وأنطونيوس ليدهاجنر وأناستاس أوديمات: الانتماء الديني في أوروبا، قاعدة البيانات الوصفية السويسرية للانتماء الديني في أوروبا (SMRE)، الانتماء الديني في الفترة ٢٠٠٦–٢٠١٩/١/١٤،٢٠١٥. Antonius Liedhegener & Anastas Odermatt: Religious Affiliation in Europe. The "Swiss Metadatabase of Religious Affiliation in Europe (SMRE)", SMRE-generated Data Retrieval for: Religious Affiliation in Period 2006-2015. 14.01.2019. https://www.smre-data.ch/

٢٢. –المرجع السابق نفسه.

كلاهما على ضلال، فيقال عنهم جميعاً لفظ وصف الكفار، فمن وصلته منهم رسالة الإسلام، وفهم مدلولاتها فقد قامت عليه الحجة، وهو غير معذور عند اللّه، ومصيره النار يوم القيامة، وكل ما يقوم به من أعمال حسنة، وما يبذله في وجوه الخير فحكمه العدم ولا قيمة له.

و" كافِر" في العربية اسم فاعل مشتق من الفعل كَفَرَ. وهناك اتفاق على أن الكُفْر لغةً: هو الستر والتغطية، ومنه قول الشاعر: " في ليلةٍ كَفَرَ النَّجومَ غَمَامُها"، أي سترها، ومنه سمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده وظلمته، وعليه فكل من ستر شيئاً فقد كفره (٢٣). ويطلق اسم الكافر لغة على الزارع أيضاً، لأنه يستر البذور بالتراب، ومنه قوله تعالى: (كَمَثَلِ غيثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُه) [الحديد:٢٠]، يعني الزراعَ. وكفر بها أي جحدها وسترها. والكفر يزيد وينقص، وهو في الإسلام مصطلح نسبي، ويشمل كل البشر أيا كانت معتقداتهم وتوجهاتهم، فالمؤمن باللّه كافر بما سواه، والمؤمن بغير اللّه كافر باللّه، والمؤمن بفكر ما قد يكون كافراً بما سواه، وقد يعثر على الكفر في سياق آخَر مثل الجحود بالنعمة، أو نكران الفضل (٢٤).

والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق. وقد روي أن عبد الملك بن مروان كتب إلى سعيد بن جبير يسأله عن الكفر فقال: "الكفر على وجوه: فكُفْرٌ هو شركٌ يتخذ مع اللّه إلها آخر، وكُفْرٌ بكتاب اللّه ورسوله، وكُفْرٌ بادعاء ولد للّه، وكُفْرُ مدعي الإسلام وهو أن يعمل أعمالاً بغير ما أنزل اللّه، ويسعى في الأرض فساداً.. ثم نحو ذلك من الأعمال كفران: أحدهما كُفْرُ نعمة اللّه، والآخر تكذيب باللّه (٢٥)..

ورغم وجود شبه إجماع على المعنى العام لكلمة كفر وكافر، فإن التباين يبدأ بالظهور لدى تنزيل هذه الكلمة على الواقع، وبيان النماذج من الأشخاص والأقوام الذين تنطبق عليهم هذه الصفة، أو يطلق عليهم هذا الاسم. فإذا كان الكفر نسبياً، فإنه مما يتصف به الناس كافة، مع ضرورة وجود مضاف إليه يبين كنهه والمراد به؛ فيمكنك أن تطلق على أي شخص صفة "كافر". لكن يبقى كلامك بلا معنى ما لم

---

٢٣. – الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ص ٤٧٠.

24. – محمد بن عبد الغفار الشريف، ما هو تعريف التكفير وماهي ضوابطه؟ ٢٤ تشرين أول/ أكتوبر٢٠٠٧. http:// www.dralsherif.net/Fatwa.aspx

٢٥. –ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد اللّه علي الكبير وآخرين، مجلد ٥، ص ٣٨٩٧ و٣٨٩٨، طبعة دار المعارف.

يكن وصفك مضافاً إلى اسم آخر. ففلان كافر (بالله)، وهذا كافر (بالطاغوت)، وذاك كافر (بالنعمة)، وتلك كفرت (عشيرها)...وهكذا.

أثر التصنيف الإسلامي العقائدي على اندماج المهاجرين المسلمين في ألمانيا:

بينت الإحصائيات أن لدى ألمانيا أربع مجموعات اعتقادية رئيسة، هي: المسيحية، واللادين باتجاهاته المختلفة (ملحدون، لادينيون، والأدريون)، والإسلام، واليهودية، وهناك أيضاً مجموعات صغيرة من أديان أخرى كالبوذية والهندوسية والوثنية وغيرها. ورغم وجود مدارس وتيارات فقهية وأقوال اجتهادية مختلفة في الحقل الإسلامي، فإننا نستطيع أن نجمل إشكالات البعد العقائدي المؤثرة في حياة المسلمين واندماجهم في المجتمع الألماني بما يلي:

- هل أهل الكتاب مؤمنون أم مشركون أم كافرون أم غير ذلك؟
- هل يجوز الزواج من أهل الكتاب؟
- هل تجوز محبة أهل الكتاب ومجاملتهم وتهنئتهم في الأعياد والمناسبات؟
- الملحدون ذوو الأصول المسيحية أو اليهودية، هل للمسلم أن يأكل ذبائحهم ويتزوج نساءهم أيضاً؟
- ما هو حكم العمل مع النصارى؟
- هل يدخل الكفار الذين حسنت أخلاقهم وأعمالهم الجنة؟
- هل يجوز احترام الكافر؟
- ما هو حكم مصافحة الملحد والتبسم في وجهه؟
- هل يجوز السكن مع المسيحيين؟
- ما حكم مصادقة المسلم للمسيحي؟
- هل يجوز الترحم على الكافر؟
- هل تجوز تهنئة غير المسلمين بأعيادهم؟ إلى غير ذلك من الأسئلة..

هذه الأسئلة وغيرها، وتلك الجدالات وأمثالها، تدل على أن ثمة رؤية قَبْلِيْة لدى السائلين والمناقشين، بأن العلاقة مع الآخرين من حيث المبدأ علاقة إشكالية، وغير تلقائية، مبنية على الحذر، ومحكومة بأحكام تتناول كل صغيرة وكبيرة فيها، أي أن الأصل دينياً هو عدم وجود علاقة مع الآخر، وأن إقامة أي شكل من

أشكال تلك العلاقة يحتاج إلى حكم شرعي مستقل.

وإذا كانت هذه الذهنية وهذه الإشكالات مما يشترك فيه معظم المسلمين، فإن تأثيرها في حياة المهاجرين المسلمين أكبر بكثير من غيرهم، خاصة لجهة الاندماج وبناء علاقات إيجابية وناجحة في المجتمعات ذات الغالبية غير الإسلامية، كألمانيا مثلاً. ونرى ضرورة تحرير الأحكام والمبادئ الدينية مما علق بها عبر الزمن من رواسب وإضافات وسوء فهم، مما لا سند له من المفهوم الكلي للقرآن والسنة، ولا تؤيده مقاصد الشريعة.

ضرورة تقديم إجابات فقهية جديدة عن أسئلة التصنيف العقائدي:

ذكرنا أن نحو 61,4% من سكان ألمانيا ينتمون رسميا إلى المسيحية، وأن 0,2% من السكان هم من اليهود. لكن الناظر إلى الواقع يجد أن قلة قليلة جداً من المسيحيين يؤمنون حقاً بها كدين ومنهج حياة، بينما يعدّ كثيرون من المنتمين إلى المسيحية كثقافة وتقاليد وفلكلور، أكثر منها التزام وتعاليم وشريعة.

وعليه فإن معظم المسيحيين في ألمانيا يمارسون حياتهم دون قيود الكنيسة والدين، في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وزواجهم وطلاقهم وغير ذلك، وإنه من الصعوبة بمكان، أو من شبه المستحيل على المرء أن يميز بين المسيحي أو اللاديني في المجتمع الألماني. وهذا ما يجعل المسلم يقف في علاقته بهم أمام أسئلة عديدة، منها ما يتعلق بالمأكل والمشرب والزواج والمودة، وغيرها مما سنناقشه لاحقاً في مباحث مستقلة.

لكن الأسئلة التي سنناقشها هنا هي تلك المتعلقة بالقيمة الاعتبارية لهؤلاء جميعاً في نظر المسلم، وهذه بعضها:

- هل يمكن اعتبار هؤلاء جميعاً من أهل الكتاب الذين خصهم الإسلام بأحكام مختلفة عن الآخرين من غير المسلمين، أم يجب تصنيفهم في جملة المشركين أو الكافرين؟
- ما هي الآثار المترتبة على اعتبارهم من أهل الكتاب، والأحكام المترتبة على اعتبارهم مشركين أو كفاراً؟
- هل يتساوى كل من المسلم وغير المسلم في الحرمة والقيمة والدم؟

- هل يؤثر الاعتقاد بضلال وخطأ وسوء مصير غير المسلمين في التعامل معهم؟

يعتقد المسلمون ويعلنون بوضوحٍ لا لبس فيه أن الإسلام هو الدين الحق الوحيد، وأن اتّباع غيره يعد خطأً أكيداً، وهم في هذا ليسوا استثناءً، بل حالهم كحال غيرهم من المؤمنين بالأديان والمذاهب والاتجاهات الأخرى: (كل حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) [الروم:٣٢]، والمسلمون في هذا الموقف يستندون إلى نصوص القرآن الكريم قبل كل شيء: (إنّ الدين عندَ اللّه الإسلام) [آل عمران:١٩]، (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [آل عمران:٨٥]، (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا) [المائدة:٣].

ولكن رغم هذا فإن علماء الإسلام أكدوا اعتراف الإسلام بالآخر عموماً، وإقراره بحقه وحريته في العقيدة والعبادة والشعائر، وفي كتب الفقه والحديث والتفسير والكلام مباحث مطولة في هذا الشأن، تستفيض في شرح الحقوق المدنية والعقائدية لأهل الكتاب أو أهل الذمة في المجتمع الإسلامي، ووجوب تركهم أحراراً في عقائدهم وشعائرهم وعباداتهم، بل وحمايتهم من الظلم الخارجي والداخلي الذي قد يقع عليهم.

نسمع ونقرأ هذا الكلام في كل مناسبة وفي كل كتاب يتناول موضوع العلاقة مع غير المسلمين في بلاد الإسلام، لكن الأمر أوسع من هذا التوصيف، ويحتاج إلى تناول المسائل المتعلقة بهذا الموضوع بدقة، خاصة أن كتب التراث الإسلامي إنما تناولت قضايا غير المسلمين في الدولة الإسلامية فقط، ولم تتناول قضايا العلاقة مع غير المسلمين في بلاد غير المسلمين.